التحامق فعل مقاومة : دراسة في أخبار أبي العبر

الباحثة/ منال أحمد درويش العُمري
محاضر بقسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الملك سعود– المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

ينظر هذا البحث في نموذج المتحامق في الأخبار العربية جاعلا من أبي العبر أنموذجا لذلك، باعتباره الأشهر، والذي وردت عنه أخبار تثبت ادعاءه الحمق، وبأنه يفعل ذلك متعمدًا. ويفترض البحث بناء على شخصية أبي العبر ومكانته الاجتماعية أنه لم يلجأ إلى التحامق من أجل التكسب، والشهرة فقط _ كما ترى ذلك العديد من الدراسات حول أبي العبر خاصة ونموذج المتحامق بشكل عام _ بل لأسباب أخرى تظهرها الأخبار الواردة عنه، ويعتمد البحث على أخبار أبي العبر الواردة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني في قراءة تأويلية تتبع حديث أبي العبر وأجوبته وأفعاله وتفسرها بأنها سخرية واضحة من المجتمع ورموزه كالخلفاء والأدباء والعلماء وغيرهم واستهزاء من قيم المجتمع الأخلاقية ومقاومة للقيود الاجتماعية والسياسية ورفضا للأطر الأدبية والعلمية والثقافية.

الكلمات المفتاحية: التحامق، أبو العبر، السخرية، المقاومة

الملخص بالإنجليزية:

This research aims to look at the fool pretend model in classical arabic prose, considering "Abū Al 'Br" as a model of the study since he is the most popular character where many literary's narrations (Akhbār) have been stated and, sometimes, implied that he wasn't a real foolish, but he was pretending to be fool instead and was doing that in purpose.

Based on the character of "Abū Al 'Br" along with his social status, the research is assumes that he used the fool pretending as tool to flout the society and to resist the social, political and literary restrictions.

الكلمات المفتاحية:

fool pretend , Abū Al 'Br , flout, resistance

مقدمة:

يعد الأحمق أحد النماذج الغالبة على مدونات النوادر والفكاهة، وأخبارُ الحمقى مبثوثة في كتب الأخبار، كما نجد ذلك عند ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) والذي وضع كتابا في (أخبار الحمقى والمغفلين)، وتضرب العرب في بعض من عرفوا بالحمق المثل كأن يقال: (أحمق من هبنقة) أو (أحمق من جحا) و (أحمق من دغة)، وكذلك الأحمق من الحيوان (أحمق من أم عامر) أو (أحمق من ذئبة) وفي النبات (أحمق من رجلة) أو (البقلة الحمقاء).

ينطلق هذا البحث من فكرة أن بعض الشخصيات كانت تدعي الحمق لجعله وسيلة من وسائل الرزق والتكسب ، ولكن نموذج أبي العبر كان مختلفا فقد كان في تحامقه مقاومة ساخرة وتعاملا عبثيا مع المجتمع بكل طبقاته؛ ويمثل أبو العبر أنموذجا لفرضية البحث لما في أخباره من دلالة واضحة على تحوله من الجد إلى الهزل ومن العقل إلى الحمق، وما يحيط بشخصيته من صفات تجعله مادة مهمة لإثبات الفرضية.

ولأهمية هذه الظاهرة والشخصية فقد تناول الباحثون هذه الظاهرة بالدراسة، فقد تناولت كارين صادر الظاهرة في بحث عنوانه (أدب التحامق في العصر العباسي)[١] واهتمت بالشعراء المتحامقين، ومنهم أبو العبر لكنها لم تعرض لأخباره بالتحليل وقد أطلقت على أدبهم (أدب المعدمين) باعتبار التحامق وسيلتهم للهرب من الفقر. وقد تناول حسين العساف التحامق في بحث بعنوان (النزعة الشعوبية في تراث الحمقى والمتحامقين) [٢] ودافع التحامق في هذا البحث هو الخصومة مع العرب عامة وبني هاشم خاصة، أما الدراسة الأكثر قربا من هذا البحث فعنوانها: (ترك الهوية، التحامق في الأدب العربي ، تحامق أبي العبر أنموذجا)[٣] لناجح المهنا يعلل التحامق بترك الهوية من أجل الكسب فيقول: " فالواضح أن السبب الاقتصادي المتمثل بالحصول على المال أو العطاء هو الذي دفع أبا العبر إلى التحول..."[٤]، إن الدراسة الأخيرة هذه تدرس الشخصية النموذج باعتبارها باحثة عن الشهرة والمال، وأن تردي الوضع الثقافي جعل أصحاب الأدب الرخيص يحصلون على العطاء فتخلى أبو العبر عن هويته مقابل هذا[٥]

إن هذا البحث يقدم فرضية جديدة فالتحامق لا يكون من أجل المال والشهرة فقط بل قد يكون خيارا عبثيا، وسخرية ومقاومة للقيود الاجتماعية والسياسية والثقافية. يهدف البحث إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية: ما أسباب تحول شخصية أبي العباس الهاشمي من الجد إلى الهزل؟ هل كان ابن عم الخلفاء بحاجة إلى طرق هذه الأبواب؟ لماذا أخذ

موضوع تحامقه بجدية وخطط له بداية من اختيار الكنية نهاية بتعقيد مجلسه للعلم؟ ما دليل عدم حصر تحامقه من أجل الكسب؟ مم يحمي نفسه بادعاء الحمق؟ ماذا كسب من هذا؟

ومن أجل الكشف عن هذا يستعين البحث بالدراسات النفسية والاجتماعية ويستأنس بآليات التأويل لفهم الظاهرة وتفسيرها وتحليل أخبار أبي العبر في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني متوسلا بما يفيد في إثبات الفرضية ومحاولة التدليل على صوابها. وفي سبيل ذلك فقد قسمت هذا البحث إلى تمهيد حول الحمق والتحامق يتضمن تعريفا بأشهر المتحامقين وأسباب تحامقهم ، ثم ثلاثة مباحث أساسية وهي : التحرر من سلطة النسب في أخبار أبي العبر التي تفيد تحرره من نسبه وتخليه عن عائلته ، والتحرر من سلطة الأدب والأدباء في إثبات سخريته من الأدب والتأليف ومجالس العلم، و الثالث التحرر من القيود الاجتماعية ومجاوزة المحظور دون خوف، ثم خاتمة لإجمال نتائج من هذا البحث.

تمهيد:

تحمل كلمة حماقة معنى "وضع الشيء في غير موضعه"[٦] كما تحمل دلالات تدور حول الكساد والفساد، قال الأزهري: " الأحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت"[٧] وابن الأعرابي يقول: إن "الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت"[٨] فالأحمق ذو عقل كاسد ورأي فاسد، كما يقول ابن الأعرابي: "لا يشاور ولا يلتفت إلى رأيه"[٩]

أما التحامق فهو ادعاء الحمق؛ حيث تستخدم صيغة تفاعل لمعانٍ محددة منها إظهار غير الحقيقة، مثل : تمارض وتماوت. فإن كان الحمق مذمة وكسادا فإنه خسارة على صاحبه، الأمر الذي يجعل سؤالَ: ما الخير المرجو من التظاهر بالحمق؟ سؤالا منطقيا قابلا للطرح والبحث.

يؤخذ معنى الحمق من كساد السوق، غير أن الأحمق وإن كسد رأيه فإن سوقه رائجة في مجالس الخلفاء، والخاصة الذين يغدقون عليه المال الوفير؛ جزاء تفكههم بحماقاته، وتسليهم برقاعته، ومفارقاته الغريبة المضحكة. هذا الكسب الوفير كان واحدًا من الأسباب التي جعلت البعض يدعي الحمق رغبة في التقرب من الخلفاء والوزراء طمعا في المال.

ولا يكون ادعاء الحمق من أجل المال فحسب، بل إن البعض الآخر يدعي الحمق(تقية) وخوفا على نفسه وماله، فالأحمق والمجنون لا حرج عليهما، ولا عقوبة تحل بهما؛ إذ لا عقل يختاران به ما يقولانه وما يفعلانه.

في باب التقية يأتي ابن الجصاص[١٠](ت: ٣١٥هـ) باعتباره مثالا واضح الدوافع ومتداول الأخبار ويجعله ابن الجوزي في كتاب الحمقى والمغفلين ضمن باب من يضرب بهم المثل في الحمق، ونقل التنوخي (ت: ٣٨٤هـ) عن أبي علي بن أبي عبدالله بن الجصاص قوله عن أبيه: " ما كان إلا من أدهى الناس (...) كان يحب أن يصور نفسه عندهم بصورة الأبله ليأمنه الوزراء لكثرة خلواته بالخلفاء"[١١]. فكان ابن الجصاص يتحامق ليحمي نفسه وماله .

وإن كانت السخرية تحمل معاني الاحتقار والاستذلال وهذا المعنى التحقيري منهي عنه، ويعد عملا مستهجنا قوبل بكثير من الاحتراز ومنه قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن" فالسخرية ازدراء متعمد واستعلاء . لكن ما علاقة التحامق بالسخرية؟

إن رغبة الإنسان بالعبور من ضفة العقل إلى ضفة الحمق أمر يشي باستحقار وازدراء للواقع، هو رد فعل عنيف – إن صح التعبير– تجاه الواقع وإقرار بلا جدوى العقل في هذا الواقع العبثي.

من هنا يلقي هذا البحث الضوء على شخصية اشتهرت في الأدب العربي بالتحامق وهي شخصية (أبي العبر) الذي بعد أن جاوز الخمسين من عمره عدل عن الجد إلى الحمق فكسب بالحمق أضعاف ما كسبه بالجد، فحاز شهرة واسعة، ونال مالا جليلا أيام المتوكل.

التحرر من سلطة النسب:

ينتمي أبو العبر إلى بني هاشم، فهو أبو العباس بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن العباس الهاشمي جاء في الأغاني :" حدثني محمد بن أبي الأزهر قال: حدثني الزبير بن بكار قال: قال عمي: ألا يأنف الخليفة لا بن عمه هذا الجاهل مما قد شهر به وفضح عشيرته والله إنه لعر بني آدم جميعا فضلا عن أهله والأدبيين أفلا يردعه ويمنعه سوء اختياره ، فقلت: إنه ليس بجاهل وإن له أدبا صالحا وشعرا طيبا ثم أنشدته:

لا أقول الله يظلمني كيف أشكو غير متهم

وإذا ما الدهر ضعضعني لم تجدني كافر النعم

قنعت نفسي بما رزقت وتناهت في العلا هممي

ليس لي مال سوى كرمي وبه أمنى من العدم

قال : ويحك فلم لا يلزم هذا وشبهه. فقلت له: والله يا عم لو رأيت ما يصل إليه بهذه الحماقات لعذرته فإن ما استملحت له لم ينفق. فقال عمي وقد غضب: أنا لا أعذره في هذا ولو حاز به الدنيا بأسرها لا عذرني الله إن عذرته"[١٢]

فبضاعة الأحمق غير كاسدة ورزقه واسع وفير، وهذا دليل على أنه يدعي الحمق لينفق، ويتخذه وسيلة من وسائل كسب الرزق، بيد أن السؤال المتبادر هنا هو ما إذا كان هذا هو السبب الوحيد، أم أن لتحامق أبي العبر أسبابا أخرى؟

البحث في طريق أبي العبر نحو التحامق يكشف أن أول ما فعله حين عزم على التحامق هو تغيير كنيته، وهذا دليل علم بالعرب وآدابها فالعرب تقول: " يعرف الأحمق من كنيته ونقش خاتمه"، فمن أبي العباس إلى أبي العبر ثم أخذ يزيد حرفا كل عام حتى صارت كنيته (أبا العبر طرد طيل طليري بك بك بك)[١٣]

فالاسم الذي يعرف به (أبو العباس الهاشمي) اسم لا يريده ولا يناسب خط حياته الجديد، فكنيته لم تكن أبا عبدالله، ولا أبا محمد، بل أبو العباس، وهذا اسم له دلالة مهمة في عصره الذي كانت الخلافة فيه لبني العباس الذين يرون الخلافة حقا لهم، باعتبارهم من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ويعود نسبه لعبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، فهو محمد بن أحمد بن عبدالله بن عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب.

هذا التخلي العبثي عن اسم العائلة (المقدس) في الثقافة العربية لصلته بأسرة النبي صلى الله عليه وسلم، الأسرة العريقة ذات المكانة المشهودة قبل الإسلام وبعده، والتي تربطه بالخلفاء، كل ذلك من أجل كنية يزيد فيها حرفا كل عام، يبين مدى السخرية من العائلة والقبيلة والأسماء والنسب بشكل عام، وهذا هو المستوى الأول الذي مارس فيه سخريته. ثم إن اختياره لكنية (أبي العبر) يجعلنا نتساءل ما إذا كان عبورا من الجد إلى الهزل، أم أنه انتقال للهزل تعبيرا عن كساده في الجد، أم أنه يريد أن يكون عبرة لغيره، أم يرجو من غيره أن يعتبر به؟ كل هذه أسئلة تنبثق من اختيار هذه الكنية دون غيرها.

وإن كان قد تخلى عن عائلته فهو الآن في حل من والده؛ وليثبت هذا تكثر الأخبار التي يسخر فيها من والده، حتى أنه جاء في الأغاني : " وكان أبوه شيخا صالحا وكان لا يكلمه فقال له بعض إخوانه لم هجرت ابنك قال: فضحني كما تعلمون بما يفعله بنفسه ثم لا يرضى بذلك حتى يهجني ويؤذيني ويضحك الناس مني"[١٤]، فكأنه بانسلاخه من اسم عائلته وتمرده على الاسم يتبرأ من كل ما يتصل بهذا الاسم وهذه العائلة، ولتأكيد ذلك يهجو والده ويسخر منه في تأكيد على عدم الانتساب إليه.

وقد يكون لهذا أسباب أخرى سياسية، فقد ذكر في الأغاني كره أبي العبر لعلي كرم الله وجهه، الشخصية صاحبة المقام الثاني علوًا بعد النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته، فهل كان في انسلاخه من الاسم انسلاخ مما يمثله هذا الاسم في ذاك العصر، فهو انسلاخ من الخلفاء وما يمثلونه، باعتبارهم أبناء عمومته، وانسلاخ من علي بن أبي طالب تحديدا؟ جاء في الأغاني:" كان أبو العبر شديد البغض لعلي بن أبي طالب – صلوات الله عليه – وله في العلويين هجاء قبيح، وكان سبب ميتته أنه خرج إلى الكوفة ليرمي بالبندق مع الرماة من أهلها في آجامهم، فسمعه بعض الكوفيين يقول في علي – صلوات الله عليه– قولا قبيحا استحل به دمه، فقتله في بعض الآجام وغرقه فيها"[١٥].

لقد قُتل أبو العبر جراء هذا البغض، فهل كان تحامقه حماية له ليشتم كما يحلو له، ويسخر من الخلفاء كما يريد دون رادع أو عقوبة ؟ ويتجانن ليعبر عن مواقفه وبغضه فينجو.

التحرر من سلطة الأدب والأدباء:

يسخر أبو العبر من الثقافة والتأليف والأدب والأدباء، كما سخر من القبيلة والعائلة، كيف لا وهو الذي يرى أن طريقهم كاسدة، ولا يؤمن بجدواها بل بعبثيتها، ومن هذا ما جاء في الأغاني : "حدثني مدرك بن محمد الشيباني قال: حدثني أبو العميس الصيمري قال: قلت لأبي العبر ونحن في دار المتوكل: ويحك أيش يحملك على هذا السخف الذي ملأت به الأرض خطبا وشعرا وأنت أديب ظريف مليح الشعر؟ فقال: أتريد أن أكسد أنا وتنفق أنت!"[١٦]

ثم قال له: " أحب أن تخبرني لو نفق العقل أكنت تقدم على البحتري، وقد قال في الخليفة بالأمس:

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتكم

فلما خرجت أنت عليه وقلت:

في أي سلـــح ترتطم وبأي كـــف تلتطم

أدخلت كفك في الرحم وعلمت أنك تنهزم

فأعطيت الجائزة وحرم ..."[١٧]

إن في هذا الخبر دلالة واضحة لأحد أسباب عدول أبي العبر عن العقل إلى الحماقة، وعن الجد إلى الهزل، وهي رغبته في الشهرة والكسب، فهذا هو السبب الأولي السطحي.

وجاء في الأغاني رأي لأبي عنبس عن الشعر؛ فالشعر إما أن يكون شعرًا حارا مثل شعر الشعراء المشهورين في عصره والمقدمين كالبحتري وأبي تمام وغيرهما، وإما أن يكون (باردا باردا) [١٨]كشعر أبي العبر ، وغير هذا فلا يراه شعرا، ولن يلقي أحد له بالا. إن الشعر الفاتر كالنادرة الفاترة سامجة غير مضحكة لا يلتفت إليها، ،فيها يقول الجاحظ :" فإن الفاتر شر من البارد"[١٩].

كان أبو العبر يجمع الكلام الذي يقوله بطريقة أوضح ما تكون إلى العبثية، والاحتقار لعمل الكتاب والشعراء، وقد وصف طريقته في التأليف بقوله : " أجلس على الجسر ومعي دواة ودرج فأكتب كل شيء أسمعه من كلام الذاهب والجائي والملاحين

حتى أملأ الدرج من الوجهين ثم أقطعه عرضا وألصقه مخالفا فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمق منه"[٢٠]. لا عبثية أكثر من هذه، فهو يجمع كلام المارة ثم يعيد ترتيبه بطريقة عشوائية، لينشر هذا الكلام على أنه أدب. إن فعلا كهذا يرمي إلى رأي يُستقرأ من فعله، وهو أن الأدب ليس إلا كلام المارّة بيد أنه مقلّب حتى صار كالطلاسم، ولعل هذا ردٌّ على القول بأن الأدب والشعر لا ينبغي لهما أن يشابها كلام سائر الناس، في حين أن أبا العبر ينزع إلى ما هو أبعد، وهو أنه دون كلام الناس، فما هو إلا كلامهم مقلبا، عشوائي التراكيب.

في فضاء آخر، سخر أبو العبر من مجالس العلم، وأعد له مجلسا في سر من رأى، يحضره المجان فيمليهم رقاعات وسماجات ويدعي أنه شيخهم المعلم، و"كان يجلس على سلم وبين يديه بلاعة فيها ماء وحمأة، وقد سد مجراها، وبين يديه قصبة طويلة، وعلى رأسه خف، وفي رجليه قلنسيتان، ومستمليه في جوف بئر، وحوله ثلاثة نفر يدقون بالهواوين، حتى تكثر الجلبة، ويقل السماع، ويصيح مستمليه من جوف البئر من يكتب، عذبك الله، ثم يملي عليهم..." [٢١]. إن الشيخ في مجلس علم أبي العبر متحامق، وطلاب العلم مجموعة من المجان، ومستملي الشيخ في جوف بئر، وهناك من يضرب بالهواوين فيحدث جلبة لا يسمع من جرائها أحد ما يقوله الشيخ الذي يجلس على سلم! ثم يعبر عن كل هذا الموقف الغريب الدال على انقلاب الحال وعبثية الحياة ما يرتديه الشيخ الذي يمثله في هذا المقام أبو العبر، فيضع الخف على رأسه بدلا من قدميه، ويضع قلنسيتين على قدميه بدلا من رأسه، وفي هذا دلالة واضحة على قلب الحال، ويعكس رؤيته للحياة التي انقلبت فيها الموازين، فالحال مقلوبة، ولذلك جعل الخف على رأسه في تحقير واضح للعقل الذي يكتنفه الرأس، ويرفع قدر القدمين اللتين علتا على الرأس، ويلقي مستمليه في جوف بئر ويُجلب عليه بضرب الهواوين، في إشارة إلى غفلة السامع في وسط الجلبة العبثية، هذا هو مجلس أبي العبر، وهذه هي فكرته حول مجالس العلم، شيوخها مقلوبو الحال، ومستملوها في جوف الظلمة تحول الجلبة عن إدراكهم، وحضورها مجانٌّ لا يعبؤون بما يقال. بمثل هذا وصل أبو العبر وحماقاته إلى مجالس الخلفاء، وملأ مجلسه بالمجان من سراة الناس.

التحرر من قيود المجتمع:

يجابه أبو العبر السياسة بادعاء الحمق، ويتجنب العقوبة على أفعاله الخارقة لعادات وقيود المجتمع بالتحامق والتجانن، فيمارس خلاعته ومجونه وهو بمأمن، دون

خوف من العقوبة، وخبره مع إسحاق بن إبراهيم قد ورد براويتين ؛ ففي طبقات الشعراء يروي ابن المعتز ذلك، قال: "حدثني غيلان بن مروان قال: أخبرني منصور الماهاني قال: لما بلغ إسحاق بن إبراهيم الطاهري ما فيه أبو العبر من الخلاعة والمجانة وإظهار الحماقة أمر بحبسه، فكتب إليه رقعة يذكر فيها أنه تائب، ويسأله أن يخرجه من الحبس حتى يعلمه بأنه يعرف رقية العقرب فيعلمه إياها. وأنه ليس في الدنيا مثلها. فأحضره وقال له: هات علِّمنا رقيتك. قال: على أن توثق أنك لا تعرض لي بعدها. فوثق له بذلك. فقال له: إذا رأيت العقرب فتناول النعل واضربها ضربة شديدة فإنها لا تعود تتحرك. قال إسحاق: خلوا عنه فإنه لا يفلح أبداً"[٢٢]. يشبه هذا الخبر ما جاء في الأغاني حين حبسه إسحاق بن إبراهيم: فصاح في السجن: لي نصيحة، فأخرج، ودعا به إسحاق، فقال: هات نصيحتك، قال: على أن تؤمنني؟ قال: نعم، قال: الكشكية أصلحك الله، لا تطيب إلا بالكشك، فضحك إسحاق وقال: هو ــ فيما أرى ــ مجنون، فقال: لا، هو امتخط حوت، قال: أيش امتخط حوت؟ ففهم ما قاله وتبسم، ثم قال: أظن أني فيك مأثوم، فقال: لا ولكنك ماء بصل، فقال: أخرجوه عني إلى لعنة الله ، ولا يقيم ببغداد، فأرده إلى الحبس، فعاد إلى سر من رأى"[٢٣]. في هاتين الروايتين يغضب إسحاق مما سمعه عن مجون أبي العبر وخلاعته فيأمر بحبسه، وفي الروايتين يحتال أبو العبر ليخرج من السجن ويثبت لإسحاق أنه مجنون لا حرج عليه، ولكن ليس قبل أن يأخذ الأمان لنفسه، ويتلاعب بالكلمات، ويقلبها ليثبت حماقته وفساد عقله، فيصبح في أمان من العقوبة، ويكون أقصى عقاب يناله هو أن يخرج من بغداد ليعود إلى سر من رأى.

يبدو من موقف إسحاق من أبي العبر اختلافا عن موقف المتوكل الذي كان يقربه ويجالسه، بل كان يرميه من المنجنيق إلى الماء، وكان يطرح الشبك فيصطاده كما يصطاد السمك، وفي هذا يقول أبو العبر:

ويأمــر بي الملــك فيطــرحني في البرك
ويصطادني بالشبك كــأنــي من الســمــك
ويضحك كك كك ككك ككك كك كك ككك[٢٤]

فنلاحظ إذن اختلاف التعامل مع أبي العبر من قبل الخلفاء والأمراء، فبعضهم يكره تخلعه ومجونه وتحامقه وبعضهم يعامله بوصفه وسيلة من وسائل التسلية، وإن كان في خبره من المتوكل سخرية ظاهرة من المتوكل وعبثه، فالخليفة يرميه ثم يصيده ثم يضحك في مشهد عبثي ساخر. ومع هذا فإن أبا العبر لا يأنف بأن يقف ليصطاد، وقد

تخلص من ملابسه وحشمته غير مراع للمجتمع المسلم العربي، في موقف يخرق كل عادات المجتمع ومحرماته وخطوطه الحمراء، فقد جاء في الخبر: " رأيت أبا العبر واقفا على بعض آجام سر من رأى، وبيده اليسرى قوس جلاهق، وعلى يده اليمنى باشق، وعلى رأسه قطعة رثة في حبل مشدود بأنشوطة، وهو عريان وفي أيره شعر مفتول مشدود فيه شص قد ألقاه في الماء للسمك ... فقلت له: خرب بيتك، أيش هذا العمل؟ قال: أصطاد ياكشخان يا أحمق بجميع جوارحي..."[٢٥]. إن هذا التصرف الخادش للحياء، المخالف لكل أعراف المجتمع المسلم، يُبرر بما يؤكد سخريته، وأمنه العقوبة، فهو أحمق بل مجنون لا حرج عليه! يختار أبو العبر حجة لا تنطلي على أحد وهي الصيد، ويتخذها عذرا مبررًا لتعريه على أعين المارّة، ويقف صابرًا صبر الصيادين، بل يجتاز كل حد من خلال وسيلته التي يعرف بها مرور السمك! وليس على مجنون حرج، فله بذلك أن يلقي كل قيم المجتمع العربي المسلم وراء ظهره، وبالتأكيد لم يكن هدفه الأصيل من فعل كهذا هو أن يصطاد، إلا أن يكون اتخذ الصيد رمزا لصيد الأفكار، ومع امتهانه للعقل فإن صيده لفكرة لا يكون بالرأس ولا باليد بل بما يعد في العرف الديني والاجتماعي عورة! ولعل في موقف كهذا – وإن أعوزنا الدليل على الترتيب التاريخي للأخبار – لعل في هذا الموقف إشارة لرمي المتوكل له في النهر وصيده إياه، فهل كان أبو العبر يشير إلى المتوكل بصيده بكل جوارحه؟ أم كان يقول للناس العابرين أنهم كصبية، أو دواب لا يستمرئ من التعري أمامهم؟ سواء عنى أيا من هذين الوجهين أو كان له رأي آخر، فإن فعله هذا خروج صارخ على النسق العام وخاصة في مجتمع كالمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت.

الخاتمة:

إن في تحامق أبي العبر رد فعل واضحا تجاه تجاهل المجتمع لعقله وظرفه، فقد سخر من المجتمع وأعرافه، ورمى بكل شيء عرض الحائط. إن في فعله هذا مقاومة واضحة للواقع الذي يفرض عليه نمطا معينا من السلوك والحديث والهيئة، فيعمد إلى النسب الشريف ليلقيه عن كاهله بكل حموله، ويصبح أبا العبر، عبرة لعابرٍ، وعابرًا بين العقلاء لضفة التحامق، ساخرًا من مفهوم العابرين به، متخلصًا من كل توقع يمليه اسمه ونسبه، ويستبدل بقرب نسبه للخلفاء، قرب حماقاته لهم فيدنو منهم ليوضع فيهم وهم رؤوس الأمة، ويجعل من عِبره شعرًا ونثرًا وأخبارًا أدبية، فيغلب البحتريّ بقبيح لفظ ومعنى، ليقول من خلال أفعاله المقلوبة كالقلنسوتين في قدميه، يقول ما لا تجود به الكلمات في حال العقل آمنا، فيأمن من وجهين، الجنون أولهما، والفعل دون تبرير ثانيهما، ويبرز من خلال فعله صورة المجتمع بكافة أطيافه، الأدبية والسياسية بل حتى عامته وسراته، ليرينا بعد كل هذه القرون المتطاولة كيف أن الخروج عن دائرة العقل والرزانة والقيم التي يخطها المجتمع، كيف لهذا الخروج أن يرينا العالم من ذروة بعيدة، أو هوة سحيقة كالتي ألقى فيها مستمليه وأجلب عليه، هكذا هم الناس في نظر أبي العبر، كمستمليه، في جوف ظلمة يُجلَبُ عليهم بهواوين الحياة، فلا يبصرون ولا يسمعون ولو سمعوا لما أدركوا.

قائمة المصادر والمراجع:

- الأصفهاني : أبو الفرج، كتاب الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م
- ابن المعتز، طبقات الشعراء، تح: عبدالستار أحمد، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦م ، ط٣
- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م
- الجاحظ : عمرو بن بحر، البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ط٥، د ت
- الدجلي : أحمد بن علي، كتاب الفلاكة والمفلوكون ، مطبعة الشعب، مصر ، ١٣٢٢هـ
- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: أكرم البوشي، الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤١٢
- صادر: كارين ، أدب التحامق في العصر العباسي، المعرفة، سوريا، وزارة الثقافة، العدد ٥٢٤، ٢٠٠٧
- العساف: حسين ، النزعة الشعوبية في تراث الحمقى والمتحامقين، المجلة العربية، الرياض، العدد ٥١١،أغسطس ٢٠٢٢م
- المهنا: ناجح ، ترك الهوية والتحامق في الأدب العربي، مجلة القادسية، العراق، العدد ١٦، ٢٠١٦م

الهوامش:

١كارين صادر، أدب التحامق في العصر العباسي، المعرفة، سوريا، وزارة الثقافة، العدد ٥٢٤، ٢٠٠٧

٢ حسين العساف، النزعة الشعوبية في تراث الحمقى والمتحامقين، المجلة العربية، الرياض، العدد ٥١١،أغسطس ٢٠٢٢م

٣ ناجح المهنا، ترك الهوية والتحامق في الأدب العربي، مجلة القادسية، العراق، العدد ١٦، ٢٠١٦م

٤ السابق، ص٩٠

٥ انظر السابق ، ص ١٠١

٦ لسان العرب مادة (حمق)

٧ السابق

٨ السابق

٩ السابق

١٠ ابن الجصاص المتمول الرئيس أبو عبدالله الحسين بن عبدالله الجصاص البغدادي الجوهري التاجر السفار، قال ابن طولون:" لا يباع لنا شيء إلا على يد ابن الجصاص. صادره المقتدر في سنة ٣٠٢ فأخذ له من الذهب والجوهر ما قوم بأربعة آلاف دينار..." كتالب الفلاكة والمفلوكون لأحمد بن علي الدجلي، مطبعة الشعب، مصر ، ١٣٢٢هـ ، ص١٠٢

١١ الذهبي سير أعلام النبلاء، تح: أكرم البوشي، الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤١٢، ج١٤، ص ٤٦٩

١٢ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م ، م١٢، ج٢٣، ص ١٤٥،١٥٣

١٣ السابق، ص ١٤٦، وفي طبقات الشعراء لابن المعتز: فمازال يزيد حتى صار " أبو العبر طرذرز لو حمق مق" ص ٣٤٢

١٤ السابق، ص ١٤٦

١٥ السابق، ص ١٤٩

١٦ السابق، ص ١٤٥

١٧ السابق، ص ١٤٥

١٨ انظر السابق ص ١٤٥

١٩ الجاحظ عمرو بن بحر، البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ط٥، د ت ، ص٧

٢٠ الأصفهاني، السابق، ص ١٤٦.

٢١ السابق، ص ١٤٦

٢٢ ابن المعتز، طبقات الشعراء، تح: عبدالستار أحمد، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦م ، ط٣ ،ص ٣٤٢

٢٣ الأصفهاني، السابق، ص ١٤٧

٢٤ انظر السابق، ص ١٤٧

٢٥ السابق، ص١٤٦، ١٤٧